الفصل الخامس:

لمحات من تطور التعليم في المجتمع الإسلامي

مقدمة:

بدأ الفكر البشري مع الإنسان منذ نشأته، وقد ارتبطت عملية التفكير بالمعرفة والتعليم بكل أشكاله، سواءً أكان تعليماً لحرفة من الحرف، كالصيد أو بناء المأوى، أو صنع السلاح، أو غيره، أو تعليماً لنوع من أنواع العلوم. وقد كانت دعوات الأنبياء والرسل تربية وتعليماً وأخلاقاً، وإعمالاً للفكر والعقل، ومحاربة للخرافة والأساطير.

وظاهرة التطور والتغير في التعليم ظاهرة ملحوظة على مدار التاريخ البشري، فقد أدت مؤسسات التعليم على مدى القرون مهمة إعانة الأسرة على توريث الأبناء تراث الآباء، المتمثّل أساساً بعناصر الهوية المميزة لكل أمة، من دين ولغة وتاريخ وقيم. لكن الفكر البشري كان دائم التغير على مستوى الأفراد والمجتمعات والأمم، تبعاً لما يتوفر لكل مستوى من الخبرات المتجددة، جيلاً بعد جيل؛ إذ تنشأ علوم ومهن ومعارف جديدة في المجتمع الواحد، ويحدث تثاقف بين المجتمعات، في حالات السلم والحرب. وتتواصل عمليات التطور والتغير في مؤسسات التعليم وموضوعاته، وأساليبه.

ونظراً إلى أننا قد اصطلحنا على أن القرآن الكريم والسنة النبوية هما مصدرا تلقِّي الإنسان الهدى الإلهي والإرشاد النبوي، وأن التراث هو اجتهاد المسلمين في تنزيلهم لهذا الهدى والإرشاد، في سائر أمور الحياة، فإننا سوف نلقي لمحات خاطفة على التطورات الرئيسية في عدد من جوانب التعليم في التاريخ الإسلامي ابتداءً من عهد الخلفاء الراشدين.

فبعض الباحثين يرون أنَّ اهتمامات الخلافة ولا سيّما في العصرين الأموي والعباسي كانت متجهة إلى تأمين الاستقرار الداخلي بقمع الثورات والفتن، وتأمين

الحدود باستمرار الفتوحات، ورد العدوان، ومن ثَمَّ فلم يكن التعليم موضوعاً لاهتمام المجتمع الإسلامي في تلك الحقبة الزمنية. بينما يرىٰ آخرون أن العلم والتعلّم لم يتوقف في يوم من الأيام، بل كان دائم التطور والنمو والاستجابة للمستجدات سواءً في الفقه، أو تمحيص الحديث النبوي، وتفسير القرآن الكريم، ثم في دخول علوم جديدة في الكلام والتصوف والفلسفة، فضلاً عن العلوم العملية والطبيعية، مثل الطب والفلك وغيرها. ويدعم هذا الرأي الآخر أن معظم النشاطات التعليمية وإنشاء المؤسسات كانت تتم بمبادرات من العلماء والأغنياء والقادة، وليس عن طريق الاهتمام الحكومي المركزي المنظم.

والحديث عن مجالات التطور والتغير في أوضاع التعليم في العالم الإسلامي كما يكشف عنها التراث، حديث يتسع لمسائل كثيرة تتصل بالعلم والمعلم والمتعلم، وفي كل عنصر من هذه العناصر الثلاثة تتفرع مسائل متعددة؛ فالعلم له محتوىٰ من موضوعات متنوعة تترتب وفق الأولوية، والتصنيف، والترتيب؛ وللمعلم طبقته، وأجرته، ومؤهلاته، وأساليبه؛ والمتعلمون فئات في السن والقدرة والميول، وهكذا. ومع ذلك فثمة عناصر يقع العلم والمعلم والمتعلم في وسطها، منها المؤسسة التعليمية، ونمط الإدارة والتمويل، والحالة الفكرية والسياسية للمجتمع، وغير ذلك. وكل ذلك مجالات متداخلة يصعب الفصل فيها بين مجال وآخر. وقد بيّنا حالة بعض هذه المجالات في الكتاب الثالث من سلسلة كتب "التراث التربوي الإسلامي" وهو بعنوان: "قضايا بحثية في التراث التربوي الإسلامي". لكنَّ السياق في هذا الفصل هو رصد بعض معالم النمو والتغيّر والتطوّر الذي شهدته هذه المجالات كما يكشف عنها التراث التربوي الإسلامي.

ومما تجدر الإشارة إليه أن تطور التعليم في التجربة التاريخية الإسلامية ارتبط بتطور العلوم إلىٰ حدٍ كبير، فكثير من العلوم كانت تبدأ ثم تنمو وتتطور، وفي كل مرحلة من مراحل النمو يكون العالِم الذي يُنشِئ العلمَ هو المعلِّم، حين يُقدِّم عِلْمَه

بطريقته الخاصة؛ تلقيناً بالمشافهة، أو حواراً ومذاكرة مع أقرانه وكبار تلاميذه، أو إملاءً على تلاميذه وهم يكتبون، أو كتابة لعلمه ثم القراءة أو الإقراء.

ونعرض فيما يأتي عدداً من الأمثلة التي تبين التطور والتغير في مجالات التعليم، كما يكشف عنها التراث الإسلامي. وكما هو الحال في منهجنا في هذه السلسلة من كتب التراث التربوي، فإننا سنوثق ما عددناه من مظاهر التغير في التعليم من مصادر تراثية أولية.

أولاً: من المشافهة إلى التدوين

من المعروف في مجال التلقِّي والمشافهة أنَّ الصحابة تلَقّوا القرآن وأقوال النبي ﷺ مشافهة، فسمعوا وحفظوا، ثم تذاكروا هذا العلم فيما بينهم، ونقلوه مشافهة إلى غيرهم ممن لم يسمعوا، ثم إلى التابعين. وحفظ كثير من التابعين ومن بعدهم هذا العلم مشافهة كذلك. وحتى في عهد التدوين؛ إذ كانوا يُمْلُون من حفظهم على تلاميذهم ليكتبوا. روى ابْنُ عبدِ البَرّ (توفي: ٤٦٣هـ) بسنده عن الأوزاعي قال: "كان هذا العلم شيئاً شريفاً؛ إذ كان من أفواه الرجال يتلاقونه ويتذاكرونه، فلما صار في الكتب ذهب نوره، وصار إلى غير أهله."[١]

ورَوَى ابنُ عبد البَرِّ كذلك روايات عديدةً عن تقيُّد كبار الصحابة وبعض التابعين بتوجيهات النبي ﷺ في عدم كتابة الأحاديث، ثم عقَّب على ذلك بقوله: "مَنْ ذَكَرْنا في هذا الباب، فإنما ذَهَب في ذلك مَذْهب العرب، لأنهم كانوا مطبوعين على الحفظ، مخصوصين بذلك، والذين كرهوا الكتاب كابن عباس والشعبي وابن شهاب والنخعي وقتادة، ومن ذهب مذهبهم وجُبِلَ جِبِلّتَهم، كانو قد طبعوا على الحفظ، فكان أحدُهم يَجْتَزِئُ بالسَّمْعَة... وهذا مشهور أن العرب خُصّت بالحفظ، كان

(١) ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي. **جامع بيان العلم وفضله**، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الدمام: دار ابن الجوزي، ١٩٩٤م، ج١، ٢٩٠.

بعضهم يحفظ أشعار بعض في سَمْعَةٍ واحدة، وقد جاء أن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حفظ قصيدة عمر بن أبي ربيعة: "أمن آل نُعم أنت غاد فمبكر" في سمعة واحدة على ما ذكروا، وليس أحد اليوم على هذا، ولولا الكتاب لضاع كثير من العلم، وقد أرخص رسول الله ﷺ في كتاب العلم، ورخّص فيه جماعة من العلماء وحَمَدوا ذلك."[1]

جاء في كشف الظنون لحاجي خليفة قوله: "الإشارة الثانية في الاحتياج إلى التدوين. واعلم أنَّ الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين لخلوص عقيدتهم ببركة صحبة النبي ﷺ، وقرب العهد إليه، ولقلة الاختلاف والواقعات وتمكّنهم من المراجعة إلى الثقات كانوا مستغنين عن تدوين علم الشرائع والأحكام، حتى إنَّ بعضهم كَرِهَ كتابة العلم، واستدل بما روي عن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه استأذن النبي ﷺ في كتابة العلم فلم يأذن له... ولما انتشر الإسلام واتسعت الأمصار وتفرقت الصحابة في الأقطار، وحدثت الفتن واختلاف الآراء، وكثرت الفتاوى والرجوع إلى الكبراء، أخذوا في تدوين الحديث والفقه وعلوم القرآن... وكان ذلك مصلحة عظيمة وفكرة في الصواب مستقيمة، فرأوا ذلك مستحبّاً بل واجباً."[2]

ويبدو أن مرحلة التدوين كانت في الأساس لكتابة السنن والأحاديث، وكان للإمام الزهري الإسهام الأكبر في كتابة الحديث وتدوينه، فقد اختاره الخليفة بحكم إقامته في دمشق عاصمة الخلافة الأموية. وفي ذلك يقول الزهري: "أمرنا عمرُ بن عبد العزيز بجمع السنن، فكتبناها؛ أي الأحاديث، دفتراً دفتراً، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً."[3] ومع أن الرواية كانت لا تزال منتشرة، فإن

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٩٦.

(٢) خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، مرجع سابق، ج١، ص٣٣-٣٤.

(٣) ابن أبي خيثمة، أبو بكر أحمد بن أبي خيثمة زهير بن حرب. **التاريخ الكبير (تاريخ ابن أبي خيثمة)**، تحقيق: صلاح بن فتحي هلل، القاهرة: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٤م، مج٢، ص٢٤٧.

الكتابة أصبحت الوسيلة التي تحفظ العلم من الضياع وتنشره بين الناس، وقد جاء في هذا المعنى أنَّ عمرَ بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن حزم: "انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإنِّي خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ، ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يُعَلَّم من لا يَعْلم، فإنَّ العلم لا يهلك حتى يكون سِرًّا."[1]

ثانياً: من المذاكرة إلى التصنيف، ومن الإلقاء إلى الإملاء

المذاكرة أسلوب من أساليب التعليم، وبناء العلم. يشترك فيها الشيخ مع التلاميذ -ومنهم عدد من المتقدمين في علم الشيخ- في التداول حول مسألة محددة، يدلون فيها بآرائهم ويقدمون أدلّتهم، فيتفقون ويختلفون، ويرد بعضهم على بعض، والشيخ يدير المجلس ويوجه الحديث، حتى يتم نوع من الاتفاق، يلخصه الشيخ ويَعُدُّه خلاصة العلم في تلك المسألة.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك طريقة الإمامِ أبي حنيفة النعمان (توفي: ١٥٠هـ)؛ فقد روى الخطيب البغدادي، في تاريخ بغداد، بسنده عن إسحق بن إبراهيم، قال: "كان أصحاب أبي حنيفة يذاكرونه؛ أبو يوسف، وزُفَر، وداود الطائي، وأسد بن عمرو، وعافية الأوْدي، والقاسم بن معن، وعلي بن مسهر، وندل وحبان ابنا علي، وكانوا يخوضون في المسألة، فإن لم يحضر عافية، فإن وافقهم قال أبو حنيفة أثبتوها، وإن لم يوافقهم قال أبو حنيفة لا تثبتوها."[2] وينسب لأبي حنيفة أنه صنف كتباً، لم تصلنا، وما نُسب إليه من الكتب إنما كتبه تلاميذه، مما أقره في المجالس بعد التذاكر والمداولة.

---

(١) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير، ط٣، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، كتاب: العلم، مقدمة الباب بعنوان "باب كيف يقبض الله العلم"، ج١، ص٤٩.

(٢) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**، مرجع سابق، ج١٢، ص٣٠٨.

روىٰ الموفَّق المكي (توفي: ٥٦٨هـ) أسماء بعض أصحاب أبي حنيفة وتلاميذه، وقال عنهم إنهم "جبال العلم" ثم قال: "وضع أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ مذهبه شورىٰ بينهم، لم يستبد فيه بنفسه دونهم، اجتهادًا منه في الدين، ومبالغةً في النصيحة لله ورسوله والمؤمنين، فكان يلقي مسألةً مسألةً، يُقلِّبُهُم، ويسمعُ ما عندهم، ويقول ما عنده، ويناظرهم شهرًا أو أكثر من ذلك حتىٰ يستقرَّ أحدُ الأقوال فيها، ثم يثبتها القاضي أبو يوسف في الأصول، حتىٰ أثبت الأصول كلها." وأضاف الموفق المكي يقول: "إنّ أبا يوسف لما ولي القضاء، دخل عليه إسماعيل بن حماد ابن الإمام، وتقدم إليه خصمان، فلما جاء أَوَانُ الحكم، قضىٰ برأي الإمام، قال: كنت تخالف الإمام في هذا، قال إنما كنا نخالفه، لنستخرج ما عنده من العلم، فإذا جاء أوان الحكم ما يرتفع رأيُنا علىٰ رأي الشيخ."[١]

وعلىٰ هذا كان تصنيف العلم علىٰ يد تلاميذ أبي حنيفة، يتم بعد هذه الطريقة من المذاكرة والمداولة. لكن الأكثر شيوعاً في طرق التعليم في التراث الإسلامي، أن يُلقي العالم ما لديه من علم علىٰ التلاميذ، ويكون الغالب في الإلقاء من الذاكرة، فكانت الأجيال الأولىٰ في عهد الصحابة والتابعين يحفظون ما يلقىٰ عليهم، دون كتابة، ثم تناقصت ملكة الحفظ في الأجيال اللاحقة، فأخذ التلاميذ يكتبون ما يلقية الشيخ أو يمليه عليهم. فأصبح الإملاء طريقة شائعة، وأصبح بالإمكان أن نتحدث عن واحد من مظاهر التغير في أنماط التعليم، وهو الانتقال من الإلقاء إلىٰ الإملاء، ثم إلىٰ القراءة والإقراء.

فالإملاء: "أن يقعد عالم وحوله تلامذته بالمحابر والقراطيس، فيتكلَّم العالم بما فتح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه من العلم، ويكتبه التلامذة، فيصير كتابًا."[٢]

---

(١) الموفق المكي، أبو المؤيد الموفق بن أحمد بن محمد بن سعيد. **مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة**، حيدرآباد (الدكن): دائرة المعارف النظامية، ١٣٢١هـ، ص١٣٣-١٣٤.

(٢) خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، مرجع سابق، ج١، ص١٦١.

قال الخطيب البغدادي (توفي: ٤٦٢هـ) في الجامع: "يستحب عقد المجالس لإملاء الحديث؛ لأنَّ ذلك أعلى مراتب الراوين، ومن أحسن مذاهب المحدثين."[١]
وذكر السيوطي (توفي: ٩١١هـ) في تدريب الراوي: "ويستحب للمحدث العارف عقد مجلس لإملاء الحديث، فإنه أعلى مراتب الرواية، ويتخذ مستملياً محصلاً متيقظاً، يُبَلِّغ عنه إذا كَثُر الجمع على عادة الحفاظ."[٢] وذكر أن أبا علي صالح بن محمد البغدادي قال: "كان محمد بن إسماعيل يجلس ببغداد، وكنت أستملي له، ويجتمع في مجلسه أكثر من عشرين ألفاً."[٣] كما تحدث عن عدد كبير من العلماء الذين عقدوا المجالس للإملاء، وصنفهم في ثلاث طبقات، فذكر في الطبقة الأولى: شعبة بن الحجاج، وفي الطبقة الثانية: يزيد بن هارون الواسطي، ومن الطبقة الثالثة: محمد بن إسماعيل البخاري.[٤]

ومِـمَّن عُرف بكثرة الإملاء بعد ذلك ابن حجر العسقلاني (توفي: ٨٥٢هـ)؛ إذ أملى عدداً من الكتب، منها: أمالي ابن حجر في تخريج أذكار النووي.[٥]

أما وقد أصبحت كتابة العلم أمراً مألوفاً؛ فإنَّ ما يُكتب سوف يحتاج إلى من

---

(١) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت. **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، تحقيق: محمد عجاج الخطيب، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩١م، ج٢، ص٥٦.

(٢) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي**، تحقيق: نظر محمد الفاريابي، الرياض: مكتبة الكوثر، ط٤، ١٤١٨ه، ج٢، ص٥٧٤.

(٣) الخطيب البغدادي، **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، مرجع سابق، ج٢، ص٦٠.

(٤) المرجع السابق، ج٢، ص٥٧-٥٨.

(٥) ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. **نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار**، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، دمشق وبيروت: دار ابن كثير، ٢٠٠٨م، خمس مجلدات.

ألف محيي الدين أبو زكريا يحي بن شرف (توفي: ٦٧٦هـ) كتاب الأذكار، وبدأ الإمام ابن حجر بتخريخ أحاديثه إملاءً، ولكنه مات قبل إكمال العمل، وخلفه في العمل نفسه تلميذُه شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (توفي: ٩٠٢هـ)، إملاءً كذلك، ومات السخاوي كذلك قبل إتمام العمل.

obeikan.com

يقرأه، وقد عُرفت طرائق متنوعة في القراءة، فمنها قراءة العالم من كتابه على التلاميذ ليأخذوا منه العلم، ومنها قراءة طالب العلم لنفسه لما يتوفر له من نسخ مكتوبة، أو ما يقرأه على العالِم من كتاب ذلك العالم أو كتاب غيره. والأمثلة كثيرة على القراءة على العالِم من كتاب له، منها قراءة الشافعي للموطأ في مجلس الإمام مالك. فقد روى السمعاني عن الشافعي قولَه: "قرأت الموطأ على مالك، ولم يكن يقرأ على مالك إلا من قد فهم العلم وجالس أهله، وكنت قد سمعت من ابن عُيَيْنَة."[1]

وعند الترمذي: "القراءة على العالم إذا كان يحفظ ما يقرأ عليه، أو يمسك أصله فيما يقرأ عليه إذا لم يحفظ، هو صحيح عند أهل الحديث مثل السماع."[2]

ومن الطريف أن أول حديث يرويه رواة السنن الكبرى للبيهقي، بالسند المتصل إلى الشافعي، هو رواية الراوي عمن رَوَى عنه، وقد تضمنت عبارة قراءة الراوي عن المروي عنه، "قراءة عليه" أربع مرات. والحديث هو:

أخبرنا الشيخ الإمام الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله ابن الحسين الشافعي، **بقراءتي عليه** بدمشق، قال: أخبرنا الشيخ الفقيه أبو محمد عبد الجبار بن محمد بن أحمد البيهقي الخواري **بقراءتي عليه** بنيسابور، قال: أخبرنا الشيخ الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، **قراءةً عليه** سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، قال: أخبرنا محمد بن موسى بن الفضل، رَحِمَهُ ٱللَّهُ **فيما قرأت عليه** من كتب الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الأصول أن أبا العباس محمد بن يعقوب بن يوسف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حدثهم، قال: أخبرنا أبو محمد الربيع

---

(١) السمعاني، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي. **أدب الإملاء والاستملاء**، دراسة وتحقيق: أحمد محمد عبد الرحمن محمد محمود، جدة: مطبعة المحمودية، ١٩٩٣م، ص٤٠٦.

(٢) قال الإمام الترمذي: "سمعت محمد بن إسماعيل يقول: قال بعض أهل العلم: فقه هذا الحديث أن القراءة على العالم والعرض عليه جائز مثل السماع، واحتج بأن الأعرابي عرض على النبي ﷺ، فأقر به النبي ﷺ." انظر:

- الترمذي، **جامع الترمذي**، مرجع سابق، ص١٢٢، عقب حديث رقم (٦١٩).

ابن سليمان المرادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: أخبرنا الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال:..."[1]

والإقراء هو تعليم القراءة، ولا سيما في تعليم قراءة القرآن الكريم، فالمقرئ يقرأ بشيء من التكلف والترفق حتى يُبَيِّن للمُتَعلِّم مخارج الحروف وأحكام القراءة.

ثالثاً: من لغة السليقة إلى النحو والقواعد

بلغ العرب قبل الإسلام شأواً بعيداً في مستوى الفصاحة اللغوية، والتذوق البياني، حتى إن الأداء اللغوي كان أفضلَ ما يتنافسون عليه ويتفاخرون به، ومع ذلك فقد كان هذا البيان يتمثل في الغالب بالمشافهة والحفظ، وكانت الأنواع الأدبية شعراً ونثراً وحِكَماً وأمثالاً وخُطَباً، يتناقلونها بالرواية والمشافهة، فالأمية كانت هي الأصل، والقراءة والكتابة هي الاستثناء. والروايات عن سهولة الحفظ والتذكر كثيرة، واستمرت هذه الملكة في بعض أبناء العربية عدة أجيال بعد الإسلام. وشاء الله سبحانه أن تكون معجزة النَّبِيِّ إليهم ليست من نوع المعجزات المادية التي كان يؤيد بها الأنبياء السابقين، بل كان معجزته هي القرآن الكريم، فما وجده العرب فيه من فصاحةٍ وبيانٍ أبلغُ في ألفاظه ومعانية وتراكيبه وأساليبه مما عهدوه، فخضعت أعناقهم له، وعرفوا به صدق النبي ﷺ.

لكن الأمر لم يستمر على هذه الحالة من قوة ملكة الحفظ والعناية بها؛ إذ تناقص عدد الحفظة من الصحابة، وكبار التابعين، واختلط العرب بالشعوب الأخرى، وانتشرت الكتابة، وظهرت علوم لم تكن موجودة، وتغيرت أحوال الحياة التي عهدها العرب، فدخل اللحن في المنطوق والمكتوب، ولم تعد اللغة المتداولة وسيلة لتقويم اللسان العربي، فاحتاج الأمر إلى أصول في تعلُّم اللغة، فجاءت جهود أبي الأسود الدؤلي بتوجيه من خليفة المسلمين عليّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

(١) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي. **معرفة السنن والآثار**، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، دمشق وحلب: دار قتيبة ودار الوعي، ط١، ١٩٩١م، ج١، ص٩٧-٩٩.

للاهتمام باللغة، وحفظها من اللحن والفساد، وتيسير تعلُّمِها، ولا سيّما بعد اختلاط العرب بالشعوب الأخرى في البلاد المفتوحة، فكانت هذه الجهود من أهم إنجازات العهد الراشدي.

لكن اللغة العربية كانت من أهم موضوعات التعليم في الإسلام في المراحل التاريخية، فقد اهتم الخليفة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اهتماماً كبيراً باللغة، وكان يلاحظ ما يقع في ألسنة المتحدثين أو كتاباتهم من لحن في اللغة، فيُنبِّه إليه، ويُعاقب عليه، وحين ولَّى عمرُ أبا موسى الأشعري على البصرة، طلب إليه أن يتولى أبو الأسود الدؤلي تعليم الإعراب.(١)

روى السيوطي في تاريخ الخلفاء عن أَبِي الأَسوَد الدُّؤَلِيِّ قال: "دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (توفي: ٤٠هـ) رأيته مطرقاً مفكراً، فقلت: فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ قال: إني سمعت ببلدكم هذا لحناً فأردت أن أصنع كتاباً في أصول العربية فقلت: إن فعلت ذلك أحييتنا وبقيت فينا هذه اللغة، ثم أتيته بعد ثلاثة فألقى إليَّ صحيفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم الكلمة اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمّى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمّى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل، ثم قال: تتبَّعْه وزِدْ فيه ما وقع لك، واعلم يا أبا الأسود أنَّ الأشياء ثلاثة: ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر، وإنما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر، قال أبو الأسود: فجمعت منه أشياء وعرضتها عليه فكان من ذلك حروف النصب، فذكرت منها: إنَّ وأنَّ وليت ولعل وكأنَّ، ولم أذكر لكنَّ، فقال لي: لم تركتها؟ فقلت: لم أحسبها منها، فقال: بل هي

---

(١) القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف. **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة وبيروت: دار الفكر العربي ومؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٩٨٦م، ج١، ص٥١.

ونصه: "كتب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أبي موسى: «أما بعد؛ فتفقهوا في الدين؛ وتعلموا السّنة؛ وتفهّموا العربية، وتعلّموا طعن الدّرية؛ وأحسنوا عبارة الرؤيا، وليعلّم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب."

منها فزدها فيها..."[1]

ثم تتابع تطوُّرُ نَـحْوِ اللغة وقواعدِها، زمنَ الأمويين والعباسيين، ومن جاء بعدهم، فكان كل عالمٍ يأخذ عمَّن سبقه، ثم يضيف الجديد، على مدى القرون التالية، وانشعبت جهود تطوير اللغة إلى مدارس عدة أشهرها مدرستا البصرة والكوفه. وثمة كتب متخصصة تبين هذا التطور الذي شارك فيه مجموعة من الأعلام الذين خلفوا إنتاجاً لغوياً لا يزال مرجعاً للدراسات اللغوية حتى اليوم، ومن هؤلاء من بعد الدؤلي، أبو عمرو بن العلاء (توفي: ١٥٤هـ)، والخليل بن أحمدَ الفَرَاهِيدِيُّ (توفي: ١٧٥هـ)، وعمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بسيبَوَيْه (توفي: ١٨٠هـ)، وأبو الحسن علي بن حمزة الكِسَائِيُّ (توفي: ١٨٩هـ)، وأبو زكريا يحيى بن زياد الدَّيْلَمِيُّ المعروف بالفَرَّاء (توفي: ٢٠٧هـ)، وسعيد بن مسعدة الملقَّب بالأخفش (توفي: ٢١٥هـ)، وأبو عُثْمانَ بكر بن محمد بن بَقِيَّةَ المعروف بالمازني (توفي: ٢٤٩هـ)، وأحمد بن يحيى المعروف بثَعْلَب (توفي: ٢٩١هـ)، وإبراهيمُ بن السري الزجَّاج (توفي: ٣١٠هـ)، وأبو سعيد الحسن بن عبد الله السِّيرَافِيُّ (توفي: ٣٦٨هـ)، وأبو عليٍّ الحَسَنُ بنُ أحمَدَ الفَارِسِيُّ (توفي: ٣٧٧هـ)، ومحمد بن يزيد بن عبد الأكبر المعروف بالمبرِّد (توفي: ٣٨٦هـ)، وأبو الفتح عثمانُ بنُ جِنِّي (توفي: ٣٩٢هـ)، وأبو القاسم محمود بن عمر الزَّمَخْشَرِيُّ (توفي: ٥٣٨هـ)، وغيرهم كثير ممن أسهم في الدراسات النحوية واللغوية في بلدان أخرى، مثل خراسان والشام ومصر والأندلس.

ولبيان أهمية اللغة العربية وأهميتها في الإسلام بدأ الإمام الشافعي كتابه "الرسالة" بالحديث عن البيان واللغة مبيناً ميزة اللغة العربية، وأهميتها في الدين، وختم باب البيان بقوله: "وإنما بدأت بما وصفت من أنَّ القرآن نزل بلسان العرب دون غيره؛ لأنَّه لا يَعلم من إيضاح جمل عِلْم الكتاب أحدٌ جَهِل سعةَ لسان العرب،

(١) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. **الأشباه والنظائر في النحو**، بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت.)، ج١، ص١٠.

وكثرةَ وجوهه، وجماعَ معانيه وتفرقَّها. ومن عَلِمَه انتفت عنه الشُّبَهُ التي دخلت على من جهل لسانَها."[1]

في هذا السياق يقول ابن تيمية: "فإنَّ الله تعالى لما أنزل كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله مبلغاً عنه للكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به، لم يكن سبيلٌ إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط اللسان، وصارت معرفتُه من الدين."[2] ويقول: "فإن اللسان العربي شعار الاسلام وأهلِه، واللُّغاتُ من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميزون."[3]

رابعاً: مِنْ حِفْظ القرآن إلى حفظ الحديث ثم حفظ العلوم

من الطبيعي أن يكون الاهتمام بالقرآن الكريم أوَّل ما يهتم به الخلفاء بعد اكتمال نزول الوحي، وانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى. وربما كانت مسألة جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر، والاحتفاظ بمرجعيتها في عهد عمر، ونَسْخَها في المصاحف في عهد عثمان أهمّ مؤشر على حرص الخلفاء على توحيد مرجعية الأمة والعناية بمصدرها الأول للعلم والتعليم.

ومن الظواهر التي كانت واضحة تماماً في العهد الراشدي حرص الخلفاء على بسط هذا التعليم للناس وإرسال عدد كبير من الصحابة إلى الأمصار التي دخلت الإسلام لتعليم أهلها.

وكان حرص الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على النهوض بالتعليم وتوفيره لفئات المجتمع كافة ظاهرة ملحوظة؛ إذ أمر بإنشاء الكتاتيب لتعليم

---

(١) الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس المطلبي. **الرسالة**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٧م، ط١، ص٥٠

(٢) الحراني، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية. **اقتضاء الصراط المستقيم، مخالفة أصحاب الجحيم**، تحقيق: ناصر العقل، الرياض: مكتبة الرشد، ط٣، ١٩٩٣م، ج١، ص٤٠١.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٤٦٢.

الأطفال القراءة والكتابة والقرآن الكريم. وقد روى ابن عاشور، نقلاً عن الواقدي، أن عمرَ بنَ الخطّاب، نظَّم العطل الدراسية لصبيان الكتاب في المدينة المنورة، وجعلها يومي الخميس والجمعة. وأشار ابن عاشور في الهامش إلى السياق الذي ورد فيه هذا الترتيب.[١]

أما في مجال تدوين الحديث؛ فقد كان الهدف من ذلك والدافع له هو الخوف من ذهاب العلم بذهاب العلماء الثقات، حيث طلب الخليفة عمر بن عبد العزيز من عامله على المدينة أبي بكر بن حزم تدوين الحديث: "انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ، فاكتبه، فإني خفت دروس العلم، وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبيّ ﷺ. ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يُعَلَّم من لا يَعْلّم، فإن العلم لا يهلِك حتى يكون سراً."[٢] ومنذ ذلك الوقت كانت كافة أنواع العلوم من تفسير وفقه وحديث أو السير والمغازي، وغيرها من علوم الشرع كانت هي مادة كتب التراث الأساسية.

وقد تعددت اهتمامات أهل العلم منذ ذلك الزمان، وتنوعت المدارس التربوية بسبب ذلك، فهناك من اهتم بالحديث والفقه والتفسير وعلم الكلام، والأدب والتاريخ وغيرها، فنتجت عن ذلك أنماط المدارس التربوية.

---

(١) لهذا الترتيب قصّة ذكرها ابنُ عاشور ملخّصُها أنّه يُرْوى أنّ عمر خرج إلى بلاد الشام سَنَةَ فتحها، وأطال المُقام بها، فطالت غيبته، واستوحش الناسُ لفقده. ومَا إنْ قرّر العودة، حتّى خرج الناسُ من المدينة شوقا للقائه، على بعد من المسافة، وكان خروجُهم يومَ الخميس غُدوَةً. وأوّلُ من اتّصل به الأولادُ لخفّتهم ونشاطهم وفرحهم به. و قَضَى الناسُ معه ليلة الجمعة، في بقية سفره، فأُصْبحَ به على المدينة، ودخل قبل الصّلاة، فقال للأولاد: أنتم خرجتم وتعبتم يوماً في الخروج، ويوماً في الرّجوع، وقد جعلت لكم يومَ الخميس يومَ راحة، وكذلك من جاء بعدكم، إلى يوم القيامة". انظر:

- ابن عاشور، محمد الطاهر. **أليس الصبح بقريب؟ التعليم العربي الإسلامي؛ دراسة تاريخية وآراء إصلاحية**. تونس والقاهرة: دار سحنون ودار السلام، ط١، ٢٠٠٦م، ص٤٩.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، كتاب العلم، بَابٌ: كَيْفَ يُقْبَضُ الْعِلْمُ؟ مقدمة الباب بعنوان "باب كيف يقبض الله العلم"، ج١، ص٤٩.

ومع ذلك فقد تواصل التطور في موضوعات التعليم، مع نشأة العلوم الإسلامية الجديدة التي انبثقت عن القرآن الكريم والسنة النبوية وأبواب الفقه، ومع نشأة الفرق والمذاهب، ومع عمليات التثاقف مع المجتمعات الأخرى والاطلاع على علوم تلك المجتمعات.

اتفقت وجهات النظر على أن ما يتعلق بالقرآن الكريم والسنة، وأحكام الشريعة، كان من أوائل العلوم التي اهتم المسلمون بتعلمها وتعليمها، واختلف الأمر فيما عدا ذلك، بحسب العلماء ومدارسهم التي ينتمون إليها، وحسب العصر الذي كانوا يعيشون فيه، ويذكر الجاحظ أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتب إلى ساكني الأمصار: "أما بعد فعلموا أولادكم العَوْم والفروسية ورَوْوهم ما سار من المثل، وحسن من الشعر. وكان ابن التوأم يقول: علم ابنك الحساب قبل الكتاب، فإنَّ الحساب أكسب من الكتاب، ومؤونة تعلمه أيسر، ووجوه منافعه أكثر."[1]

أما عصر التابعين ومن بعدهم؛ فقد بدأت تتشكل المدارس التربوية بأنواعها، وأصبح كل قطاع منهم له اهتماماته وأساليبه في التربية، فبينما كانت مدرسة الفقه والحديث تركز اهتمامها على نصوص الكتاب والسنة، كانت مدرسة أهل الكلام والفلسفة تعنى بقضايا الحوار والجدل، الذي كان يعيبه أصحاب المدرسة الأولى.

خامساً: من الكُتَّاب والمسجد إلى مجالس التأديب ثم إلى المدارس ومراكز البحوث

وكان من الطبيعي كذلك أن يبدأ التعليم في المجتمع الإسلامي في أوائل عهده بالتسريع في تعليم القراءة والكتابة نتيجة لما وجده المسلمون في القرآن الكريم وفي السيرة النبوية من فضل ذلك، فمع أنَّ الأمِّيَّة كانت هي السائدة، فإنَّ الله سبحانه

(١) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب. **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت: دار الجيل، (د. ت.)، ج٢، ص١٨٠.

جعل أول الوحي كلمة "إقرأ"، ومن اليوم الأول للرسالة جاء الأمر بقراءة ما يكتبه القلم: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾ [العلق: ٣ - ٤] وسوف تكون القراءة والكتابة وسيلتان لتيسير تعلم القرآن الكريم، ثم من بعد ذلك تعليم الحديث النبوي الشريف وسائر العلوم الأخرى.

وقد كانت الكتاتيب التي تعلم القراءة والكتابة موجودة قبل الإسلام، وإن كانت على نطاق ضيق، لكنها انتشرت بعد الإسلام انتشاراً واسعاً، لا سيما بعد الهجرة، وقد استعان المجتمع الإسلامي بغير المسلمين في تعليم القراءة والكتابة بدءاً من فداء أسرى بدر مقابل تعليم أبناء المسلمين، وتعبيراً عن الاتجاه نحو محو الأمية، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس قال: "كان ناسٌ من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ، فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة. قال: فجاء غلام يوماً يبكي إلى أبيه، فقال: ما شأنك؟ قال: ضربني معلمي، قال: الخبيثُ يَطْلبُ بِذِحْل بدر (يعني: بثأر) والله لا تأْتيه أبداً."[(١)]

وقد تكرر اعتماد الأسرى لتعليم أبناء المسلمين في عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عندما فتح معاوية بن أبي سفيان قيسارية، جاء في فتوح البلدان للبلاذري: "أن سبي قيسارية بلغوا أربعة آلاف رأس، فلما بعث به معاوية إلى عمر بن الخطاب، أمر بهم فأنزلوا الجُرْف، ثم قسَّمهم على يتامى الأنصار، وجعل بعضهم في الكُتَّاب، والأعمال للمسلمين."[(٢)] وقد جاء في تاريخ دمشق لابن عساكر، أن أبناء المسلمين كانوا يذهبون إلى الكتّاب مع أولاد النصارى، فيروي عن أدهم بن محرز بن أسيد الباهلي قوله: "وإني لأول مولود في الإسلام بحمص، وأول مولود

---

(١) الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل. مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، إشراف: عبد الله بن عبد المحسن التركي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م)، ج٤، ص٩٢، حديث رقم: (٢٢١٦).

(٢) البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر. **فتوح البلدان**، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، بيروت: مؤسسة المعارف، ١٩٨٧م، ص١٩٣.

فُرِض له بها، وأول مولود رُؤِيَ في كَتِفٍ يختلف بها إلى الكُتَّاب أتعلَّم الكِتابَ."[1] ثم يروي كذلك عن إياس بن معاوية بن قرة قوله: "كنت في مكتب بالشام، وكنت صبياً فاجتمع النصاري يضحكون من المسلمين، وقالوا: إنهم يزعمون أنه لا يكون تفل الطعام في الجنة، قال: قلت: يا معلم أليس يزعم أن أكثر الطعام يذهب من البدن؟ فقال: بلى، فقال: قلت: فما تنكر أن يكون الباقي يذهبه الله في البدن كله؟ فقال: أنت شيطان."[2]

لكن المسجد بقي مكانَ التعليمِ الأكثرَ أهمية في معظم العصور. ففي عصر الصحابة كان بعض كبار الصحابة يجلسون في المسجد لتعليم الناس استشعاراً بواجبهم وطلباً للأجر والثواب من الله تعالى، واقتداءً بالنبيّ ﷺ، وكان الواحد منهم هو من يقرر موضوع التعليم وموعده ومكانه. فقد أُثر عن الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان يعلم في مسجد المدينة، فيُخصص كل يوم لعِلْم من العلوم، قال ابن سعد: عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: "... ولقد كان يجلس يوماً ما يذكر فيه إلا الفقه، ويوماً التأويل، ويوماً المغازي، ويوماً الشعر، ويوماً أيام العرب، وما رأيت عالما قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلاً قط سأله إلا وجد عنده علماً."[3]

---

(١) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله. **تاريخ مدينة دمشق**، دراسة وتحقيق: محب الدين العمروي، بيروت: دار الفكر، ١٩٩٥م، ج٧، ص٤٦٥.

(٢) ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، مرجع سابق، ج١٠، ص١٤-١٥.

وتعتمد ملكة أبيض على هذا النص والذي ورد قبله في أن المسلمين قد عمدوا بعد الفتح إلى إرسال أبنائهم لتعلم الكتابة في الكتاتيب القائمة، والتي كان يديرها المعلمون النصارى، وأن تدبيراً من هذا القبيل لا يمكن أن يتخذه والي الشام معاوية بن أبي سفيان ما لم يحصل على موافقة مسبقة من الخليفة؛ أي عمر بن الخطاب. انظر في ذلك:

- أبيض، ملكة. **التربية والثقافة العربية - الإسلامية في الشام والجزيرة**، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠م، ص٨٤-٨٥.

(٣) ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري. **الطبقات الكبرى**، بيروت، دار صادر، (د. ت.)، ج٢، ص٣٦٨.

وابتداءً من مطلع العهد الأموي ظهر نمط من التعليم لم يكن موجوداً في عهد الراشدين، وهو تعليم أبناء الخلفاء والأمراء، وكان هذا التعليم يتم في قصور الخلفاء، وربما كان المؤدب يسكن داخل القصر حتى يرعى تأديب الأبناء في أوقاتهم كلها. والتأديب هنا له أغراض مختلفة عن تعليم العامة القرآن والفقه والحديث واللغة؛ لأن غرضه إعداد هؤلاء أبناء الخاصة لمهام ومسؤوليات كبيرة، فلا بد من كفاءات معينة في الشخصية القيادية. وكان مكان التعليم هو القصور الأمراء. وقد ظهرت جوانب الشخصية المطلوبة في وصايا الخلفاء والأمراء لمؤدبي الأبناء، حيث كان التأديب يشمل أمور الدين والأخلاق والمعاملة، واللغة، والصحة الجسدية، والطعام والشراب، وحتى طريق العقاب عند الحاجة إليه. روى ابن كثير وصية عبد الملك لمؤدب أولاده إِسمَاعيلُ بن عُبَيْد اللهَّ بن أَبِي المُهَاجِر، قال: "عَلِّمْهُم الصِّدْقَ كَمَا تُعَلِّمُهم الْقُرْآنَ، وَجَنِّبْهُم السَّفِلَةَ؛ فَإِنَّهُمْ أَسْوَأُ النَّاسِ رِعَةً، وَأَقلُّهم أَدَبًا، وَجَنِّبْهُم الْحَشَمَ؛ فَإِنَّهُمْ لَهُمْ مَفْسدَةٌ، وَأَحْفِ شُعُورَهُم، تَغْلُظْ رِقَابُهم، وَأَطْعِمْهُم اللَّحْمَ يَقْوُوا، وَعَلِّمْهم الشِّعْرَ يَمْجُدوا وَينجُدُوا، وَمُرْهُمْ أَنْ يَسْتَاكُوا عَرْضًا، وَيَمُصُّوا الْمَاءَ مَصًّا، وَلَا يَعُبُّوا عَبًّا، وَإِذَا احْتَجْتَ أَنْ تَتَنَاوَلَهُم بِأَدَبٍ، فَلْيَكُنْ ذَلِكَ فِي سِرٍّ لَا يَعلَمُ بِهِم أَحَدٌ مِنَ الْغَاشِيَةِ، فَيَهُونُوا عَلَيهِم."[1]

وجاء في وصية الرشيد لمؤدب ولده الأمين: "يا أحمر! إنَّ أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجةَ نفسِه وثمرةَ قلبِه، فصيّر يدَك عليه مبسوطة، وطاعتَه لك واجبة، وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقْرِئْه القرآنَ، وعرّفْه الأخْبار، وروّه الأشْعار، وعلّمهُ السنَن، وبصِّرْه بمواقع الكلام وبدْئِه، وامْنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخُذْه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورَفْعِ مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرنَّ بك ساعةٌ إلا وأنت مغتنمٌ فائدةً تفيده إيَّاها، من غير أن تُحْزِنَه فتُميتَ ذِهْنَه، ولا تُـمْعِن في مسامحته فيستحْلي الفراغَ ويألفَه، وقوّمْه ما استطعت

(١) ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي. **البداية والنهاية**، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة: دار هجر، ط١، ١٩٩٨م، ج١٢، ص٣٨٨.

بالقرب والملايَنَةِ، فإن أباهُمَا فعليك بالشدَّة والغِلْظَة."[1]

وقد روىٰ الأصفهاني عدداً من القصص التي تشير إلىٰ أن تأديب أولاد الملوك كان يعد عملاً عظيماً مرموقاً كان يتولاه خيرة رجال العصر علماً وأدباً وخلقاً.[2]

وقد وصل الأمر بالتأديب أن أصبح مهنة تحتاج إلىٰ تعليم وتدريب فتخصص بعض كبار العلماء في إعداد المؤدبين، ومن ذلك ما ذكره ياقوت الحموي عن أبي الفضل أحمد بن محمد السهلي (توفي بعد سنة ٣٣٤هـ) "ذكره أبو منصور الثعالبي فقال: إمام في الأدب، خنّق التسعين في خدمة الكتب، وأنفق عمره علىٰ مطالعة العلوم وتدريس مؤدبي نيسابور وإحراز الفضائل والمحاسن."[3]

وهكذا كانت مؤسسة الكُتَّاب تعنىٰ بتعليم مبادئ الكتابة والقرآءة والقرآن، وبعض الأخلاق والآداب العامة، لأبناء العامة، وكان التأديب تعليماً وإعداداً خاصاً لأبناء الخاصة، ثم كانت نشأة المدارس مرحلة مهمة من مراحل تطور التعليم في التاريخ الإسلامي. ومن الواضح أن معنىٰ المدرسة في اصطلاحات التراث الإسلامي كان يعني مؤسسة تعليمية تعلم تخصصات علمية في صورة أقرب إلىٰ ما يعرف اليوم بالتعليم الجامعي.

وقد أشار المقريزي في المواعظ والاعتبار إلىٰ أن "المدارس مما حدث في الإسلام، ولم تكن تعرف في زمن الصحابة ولا التابعين، وإنما حدث عمُلها بعد الأربعمائة من سني الهجرة،" ثم ذكر المدارس الأربع في نيسابور التي أشار إليها السيوطي والذهبي.[4]

---

(١) ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج٣، ص١١١٩-١١٢٠.

(٢) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل. **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، (د. ت.)، ج١، ص٥٢ - ٥٣.

(٣) الحموي، **معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٩١.

(٤) المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر. **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)**، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ط٢، ١٩٨٧م، ج٢، ص٣٦٣.

وذكر السيوطي في حسن المحاضرة أن الحافظ الذهبي أنكر على من زعم أن نظام الملك أول من بنى المدارس، وقال: "قد كانت المدارس البيهقية بنيسابور قبل أن يولد نظام الملك، والمدرسة السعيدية بنيسابور أيضاً، بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود لما كان والياً بنيسابور، ومدرسة ثالثة بنيسابور بناها أبو سعد إسماعيل بن علي بن المثني الاستراباذي الصوفي الواعظ شيخ الخطيب، ومدرسة رابعة بنيسابور أيضاً بنيت للأستاذ أبي إسحاق."[1]

فالمدارس الأربعة التي قيل إنها أنشئت في نيسابور قبل المدارس النظامية، كانت كل واحدة منها تُبْنى لعالِم من العلماء الذي سوف يدرس فيها تخصصه بالدرجة الأولى من فقه أو حديث أو تصوف. وحتى المدارس النظامية التي أنشئت فيما بعد في بغداد وغيرها كانت متخصصة في تدريس الفقه الشافعي تحديداً، كان من أهداف نظام الملك في بناء المدارس النظامية هو تعليم الناس حقائق الإسلام على طريقة أهل السنة والجماعة، بعد أن توسعت سيطرة الفاطميين والإسماعليين على شمال أفريقيا ومصر واليمن وكثير من أنحاء بلاد الشام، وانتشر دعاتهم في العراق، ولذلك كانت المدارس النظامية تعلم المذهب الشافعي وحسب.

ولكن يبدو أن الأمر قد اختلف بعد استقرت الأمور حيث أخذت المدارس تدرس العلوم الأخرى مثل الطب والهندسة والفلك، وفي زمن المستنصر بعد ذلك فتحت المدرسة المستنصرية، عام ٦٣١هـ، لتعلم المذاهب الأربعة ومعها علوم الطب، واللغة والشعر والنحو والحديث والتفسير، وعيّن المستنصر طبيباً مشهوراً يحيط به عشرة من الأطباء المتعلمين على يديه.

ذكر ابن كثير في البداية والنهاية عن المستنصرية في أخبار سنة إحدى وثلاثين وستمائة: "فيها كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد، ولم يُبْنَ مدرسة قبلها مثلها،

---

(١) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه)، ١٩٦٨م، ج٢، ص٢٥٥-٢٥٧.

ووقفت على المذاهب الأربعة، من كل طائفة اثنان وستون فقيهاً، وأربعة معيدين، ومدرس لكل مذهب، وشيخ حديث، وقارئان، وعشرة مستمعين، وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب، ومكتب للأيتام." ثم ذكر ابن كثير تفاصيل الاحتفال بافتتاح المدرسة بحضور الخليفة المستنصر، وأسماء العلماء الذين تولوا مشيخة التدريس للمذاهب الأربعة، ثم قال: "ووقفت خزائن كتب لم يسمع بمثلها في كثرتها، وحسن نسخها، وجودة الكتب الموقوف بها."[1]

واستمر التطور والنمو في إنشاء المدارس على نمط المدارس النظامية من حيث تدريس العلوم المتخصصة، والمباني الواسعة، والخدمات المتعددة، والأوقاف الدارّة، وأجور المعلمين المجزية، فانتشرت في بلاد الشام، ولا سيما في زمن نور الدين محمود ومن جاء بعده. ويروي النعيمي تفاصيل عن مئات المدارس في بلاد الشام فكان منها مدارس خاصة بعلوم القرآن الكريم، ومنها خاصة بالحديث الشريف، ومنها مدارس متعددة لكل مذهب من المذاهب الفقهية، ومنها مدارس الطب، وغيرها من أماكن التعليم الأخرى مثل الخوانق والربط والترب والرباطات.[2]

وكان للفاطميين الإسماعيلية نظامهم التعليمي الخاص، فقد انتشر دعاتهم في معظم أنحاء العالم الإسلامي يومذاك، عن طريق دعاة معلمين كانوا يتخفون بالمهن والحرف. وتفنن دعاتهم في دراسة الفلسفات المختلفة، وانقسم التعليم عندهم إلى ظاهر هو الشريعة المعروفة في الإسلام، يقدمونه في المساجد وسيلة للتواصل مع الناس، والتستر على ما وراء الظاهر من علم الباطن الذي كان يقدم للمستجيب من الناس ليلقن دروساً خاصة سميت "مجالس الحكمة" تعقد في المنازل والأماكن السرية. وعندما احتلوا مصر عام ٣٥٨هـ، وأصبح لهم دولة وخلافة وخطبة، حولوا دروسهم إلى المساجد التي بنوها، لعقد "مجالس الحكمة". وكان الجامع الأزهر أشهر

(١) ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي. **البداية والنهاية**، عناية وتوثيق: عبد الرحمن اللاذقي ومحمد غازي بيضون، بيروت: دار المعرفة، ط٢، ١٩٩٧م، ج١٣، ١٦٣-١٦٤.

(٢) النعيمي، **الدارس في تاريخ المدارس**، مرجع سابق، جزءان.

ما بنوه لتعليم مذهبهم وإعداد الدعاة ونشرهم في البلدان المختلفة، حيث وظفوا فيه خمسة وأربعين عالماً من علمائهم، وعلى رأسهم داعي الدعاة وقاضي القضاة النعمان ابن محمد لتدريس المذهب الإسماعيلي في دورات منفصلة للرجال والنساء، وجعلوا فيه مكتبة كبرى ضمت الآلاف من المخطوطات التي تروج للمذهب الإسماعيلي.

وقد باشر صلاح الدين الأيوبي وهو لا يزال وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد ببناء المدارس السنية، فبني المدرسة الناصرية بالقرب من المسجد العتيق لفقهاء الشافعية، ويقول المقريزي: إن بناء المدرسة كان "من أعظم ما نزل بالدولة، وهي أول مدرسة عملت بديار مصر."[1] ثم أنشأ مدارس أخرى، للتسريع في محو آثار العهد الفاطمي، منها المدرسة القمحية للفقهاء المالكية، والمدرسة السيوفية للفقهاء الحنفية، وأنشأ القاضي الفاضل (وزير صلاح الدين) المدرسة الفاضلية، وأنشأ الملك العادل أخو صلاح الدين المدرسة العادلية، وهكذا.

ونشطت حركة بناء المدارس في عهد المماليك نشاطاً كبيراً. واهتموا اهتماماً كبيراً بالجامع الأزهر، ووظيفته التعليمية، إضافة إلى بناء مدارس جديدة كثيرة منها: مدارس: الظاهرية، والناصرية، والمنصورية والسلطان حسن، والحجازية، والمؤيدية. وقد وثق المقريزي أسماء عشرات المدارس والمارستانات والخوانق ومؤسسيها، وعلمائها وأوقافها.[2]

وبقيت معظم هذه المدارس في عهد العثمانيين. إضافة إلى بناء عدد جديد من المدارس التي كان يبنيها الأمراء والوزراء، منها مدرسة "ألتي برمق وتعني أصابع الست"، ومدرسة الأمير مصطفى، ومدرسة محمد باشا أبو النور، ومدرسة إسماعيل باشا، وغيرها.

وثمة مؤسسات علمية تعليمية أكثر تقدماً وتخصصاً عرفت في كثير من أنحاء

---

(١) المقريزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)**، مرجع سابق، ج٢، ص٣٦٣.

(٢) المرجع السابق، ج٢، ص٣٦٢-٤١٤.

العالم الإسلامي، وربما كانت أقرب إلى ما يسمى اليوم مراكز البحث العلمي، تميزت عن أنواع المؤسسات التعليمية الأخرى، بأنها كانت مكاناً لكبار العلماء، والأمراء، والخلفاء، من أشهرها بيت الحكمة الأموي، وبيت الحكمة العباسي، ودار العلم الفاطمية.

ففي العصر الأموي أشارت بعض الروايات أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان كان له في منزله مكان للقراءة يسمى بيت الحكمة، يقعد فيه كل ليلة قبل صلاة الفجر "فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمُرُّ بسَمْعِه كلَّ ليلة جُمَل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات، ثم يخرج فيصلي الصبح، ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم."[1] وقد تطور هذا "البيت من بيت في منزل خاص" إلى "خزانة الكتب في قصر الخليفة"، إلى أن أصبح "خزانة الكتب" أو المكتبة العامة في الجامع الأموي.

وفي العصر العباسي اهتم الخلفاء بالعلوم منذ وقت مبكر، فقد عرف الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور (توفي: ١٥٨هـ) باهتمامه بعلوم الحكمة، وتشجيعه لمجالس

---

(١) هناك بعض الإشارات في كتب التراث عن وجود بيت الحكمة في العهد الأموي، انظر:

- الدارمي، عثمان بن سعيد. **رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد**، صححه وعلق عليه: محمد حامد الفقي، بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت.)، ص٢٣٥.

- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي. **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، عني به: الدكتور محمد هشام النعسان وعبد المجيد طعمة حلبي، بيروت: دار المعرفة، ط١، ٢٠٠٥م، مج٢، ج٣، ص٣٥.

وقد تتبع يوسف العش خبر بيت الحكمة الأموي فأشار إلى انتقال خزانة الكتب في قصور الخلفاء ونقل بعض روايات التراث حول محتويات هذه المكتبة وأسماء بعض من عملوا فيها بصفة خازن وناسخ، ولكن يلاحظ انقطاع ذكر مصطلح بيت الحكمة، وبقاء تسمية خزانة الكتب. كما يشير إلى الاختلاف في طريقة استعمال هذه الخزانة من فترة إلى أخرى بين الاستعمال الخاص بالخليفة إلى فتحها أمام الخاصة من العلماء والأمراء، ثم إلى فتحها للعامة. انظر في ذلك:

- العش، يوسف. **دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط**، ترجمه عن الفرنسية: نزار أباظه ومحمد صبّاغ، دمشق وبيروت: دار الفكر، ودار الفكر المعاصر، ١٩٩١م، ص٤٣-٥١.

العلم والأدب وتقريبه للعلماء والأُدباء، فأمر بترجمة كتب الطب والفلك، وأنشأ خزائن متعددة في قصره. ثم جاء الخليفة الخامس هارون الرشيد (توفي: ١٩٣هـ) فأمر بإقامة مكتبة عامة سميت "بيت الحكمة" خارج القصر ونقل ما كان في القصر من خزائن الكتب، وتوسعت المكتبة وقسمت إلى أقسام ودوائر علمية وإدارية متخصصة، للتزويد والصيانة والترجمة، وعين لها من المشرفين والمترجمين والنساخ، فكانت مركزاً للبحث العلمي فريداً في ذلك الزمان، وزاد اشتهار بيت الحكمة في عهد الخليفة العباسي السابع وهو المأمون (توفي: ٢١٨هـ) الذي حرص على تزويد المكتبة بما كان متوفراً لدى الروم من كتب اليونان في الفلسفة والطب والفلك، وبذل الكثير من الأموال من أجل إحضارها وترجمتها.[١]

أما في مصر الفاطمية؛ فكان أول مركز لتعليم الفقه بناه الوزير يعقوب بن كلّس بجواز الجامع الأزهر عام ٣٩٥هـ وسماه "دار العلم" في عهد العزيز بالله، ويبدو أنه كان على غرار بيت الحكمة الذي بناه الخليفة العباسي المأمون، وكان برنامج التعليم في هذه الدار يشتمل على الطب والرياضيات والفلك، إضافة إلى علوم الدين على المذهب الإسماعيلي الفاطمي، وفي عهد الحاكم بأمر الله أقيمت أوقاف ضخمة لتمويل وخدمة المساجد ومعاهد التعليم، وأصبحت دار العلم مؤسسة علمية كبيرة، تتكون من خزائن من الكتب بلغ عددها أربعين خزانة في كل منها ثمانية عشر ألف مجلد،[٢] وكانت مفتوحة للعلماء وطلبة العلم من جميع التخصصات، ولا سيما الرياضيات والفلسفة، وكانت تزود بما يلزم من ورق وحبر وأقلام لنسخ الكتب، وفيها الكثير من الموظفين والمساعدين والخدم.[٣] وكان

---

(١) خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، مرجع سابق، ج١، ص٦٨١.

(٢) المقريزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)**، مرجع سابق، ج١، ص٤٠٨.

(٣) المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر. **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث، ط٢، ١٩٩٦م، ج٢، ص٥٦.

يجتمع فيها العلماء والباحثون للبحث والتعليم، ففيها عمل ابن الهيثم فترة، وفيها استطاع العالم الفلكي أحمد بن يونس الحاكمي إعداد خريطة فلكية مشهورة سماها "الزيج الحاكمي" نسبة إلى الخليفة الحاكم.[1] وشملت الحلقات الدراسية إلى جانب العلوم الدينية علوم الفلك والفلسفة والمنطق واللغة والطب.

سادساً: من المتون إلى الشروح والمختصرات والمنظومات

يمكن أن يكون هذا العنوان من عناصر التطور "من الاجتهاد إلى التقليد"؛ ذلك أنَّ مَنْ كان يؤلِّف ويصنِّف في البداية كان مجتهداً في وضع مبادئ العلم وموضوعاته، ثم جاءت مراحل لاحقة اعتُمدت فيها كتابات المجتهدين مادة أساسية للتأليف والتعليم، لكنها احتاجت أحياناً إلى الشرح، أو الاختصار، أو التلخيص، أو التهذيب.

ولنأخذ مثلاً على الاجتهاد الأول وما تبعه من الاعتماد عليه بالشرح والاختصار. والمثل هو متن الإمام الشافعي (توفي: ٢٠٤هـ) واجتهاداته الفقهية في كتابيه "الأم"، و"الإملاء". فقد كان الإمام البويطي (توفي: ٢٣١هـ) أبرز تلاميذ الشافعي فروى كثيراً من دروس الشافعي واختصرها في كتاب "المختصر الكبير"، ثم في كتاب "المختصر الصغير". ثم جاء المزني (توفي: ٢٦٤هـ) وهو تلميذ آخر من تلاميذه، فلخّص كتاب الأم في كتاب "مختصر المزني في فروع الشافعية".

وفي القرن الخامس الهجري جاء إمام الحرمين الجويني (٤٧٨هـ)، فشرح مختصر المزني في كتابه "نهاية المطلب في دراية المذهب" فكان أكبر كتاب مطبوع في الفقه الشافعي، ثم اختصر الإمام أبو حامد الغزالي (توفي: ٥٠٥هـ) نهاية المطلب

---

(١) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٩٤م، ج٢، ص٤٢٩. انظر أيضاً:

- الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، مرجع سابق، ج١٧، ص١٠٩.
- خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مرجع سابق، ج٢، ص٩٦٥.

للجويني في كتاب مطول سماه "البسيط في المذهب" ثم اختصره في كتاب متوسط الحجم سمّاه "الوسيط"، ثم اختصر الوسيط في كتاب أكثر اختصاراً سماه "الوجيز".

وفي القرن السابع جاء الإمام الرافعي (توفي: ٦٢٣هـ) فشرح "الوجيز" شرحاً مفصلاً سماه "الفتح العزيز في شرح الوجيز"، وشرحاً آخر موجزاً سماه "الشرح الصغير"، وكتب كتاباً آخر في الفقه الشافعي سماه المحرر، وجاء الإمام أبو زكريا يحي بن شرف النووي (توفي: ٦٧٦هـ) فاختصر "المحرر" إلى نصف مادته في كتاب سمّاه "منهاج الطالبين وعدة المفتين".

وشهد القرن الثامن عناية عشرات العلماء بكتاب المنهاج للنووي شرحاً واختصاراً نذكر منهم على سبيل المثال، لا للحصر، بهاء الدين بن عرَّام السكندري (توفي: ٧٢٠هـ) في كتابه "السراج الوهاج في إيضاح المنهاج"، وتاج الدين السبكي (توفي: ٧٧٠هـ) في كتابه "ترشيح التوشيح في ترجيح التصحيح"، ومحمد بن موسى الدميري (توفي: ٨٠٨هـ) في كتابه "النجم الوهاج في شرح المنهاج". وتواصل عناية العلماء بكتاب المنهاج في القرون اللاحقة، فكان منهم شيخ الإسلام زكريا الأنصاري (توفي: ٩٣٦هـ)، في كتابه «منهج الطلاب»، وهو مختصر على هامش «منهاج الطالبين"، وشمس الدين الجمال الرملي (توفي: ١٠٠٤هـ) في كتابه "نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج"، وأحمد بن محمد الجوهري (توفي: ١٢١٥هـ) في كتابه مختصر منهج الطلاب لزكريا الأنصاري في كتاب سمَّاه «نهج الطالب إلى أشرف المطالب».

ولا تزال الشروح والمختصرات على كتاب النووي تتوالى حتى الآن في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين!

والأمثلة على ذلك كثيرة في كتب المذاهب الفقهية الأخرى، وسائر العلوم من أصول وتفسير وعقيدة ولغة وغيرها.

فالمتن هو الكتاب الأصلي التي تكتب فيه أصول المسائل، ويكون موجزاً خالياً من التفاصيل وكثرة الأمثلة والتفريعات، والشرح هو تفصيل الكلام الوارد

في المتن بالأمثلة والتوضيحات، وقد يكون كتاباً مستقلاً يضع جملة من المتن ويستطرد في شرحها، أو قد يكون الشرح حاشية على حافة كتاب المتن، فالحاشية هي عبارات تكتب على أطراف الكتاب بصورة تتوازي مع عبارات المتن.

ومن المتون ما هو نظم يختصر مادة الكتاب الأصلي في أبيات شعرية سهلة الحفظ؛ مثل ألفية ابن مالك في النحو، وملحمة الإعراب للحريري وألفية العراقي لمقدمة ابن الصلاح.

فألفية ابن مالك (توفي: ٦٧٢هـ) مثلاً منظومة شعرية طويلة تناولت ما انتهت إليه قواعد النحو والصرف عند السابقين من علماء اللغة، فنظم مسائل القواعد لتسهيل حفظها والاستشهاد بما يلزم منها. وأصبحت متناً اعتنى به كثير من علماء اللغة وتلاميذهم، فجاءت عليها الشروح والحواشي والتعليقات، فبلغ عدد الشروح ما يزيد على الأربعين شرحاً، من بينها شرح ابن مالك نفسه، وشرح ابنه "محمد بدر الدين" (توفي: ٦٨٦هـ).

ومما اشتهر من الشروح كتاب أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لجمال الدين ابن هشام الأنصاري (توفي: ٧٦١هـ)، وكتاب شرح ابن عقيل (توفي: ٧٦٩هـ)، وشرح الأشموني (توفي: ٩٢٩هـ) المسمى "منهج السالك إلى ألفية ابن مالك". وعلى ألفية ابن مالك جاءت أعمال كثيرة أخرى منها إعراب نصوص المنظومة في كتاب "تمرين الطلاب في صناعة الإعراب"، لخالد الأزهري (٩٠٥هـ)، ومنها شرح الشواهد التي تضمنتها الألفية كما فعل بدر الدين العيني (توفي: ٨٥٥هـ) في كتابه "المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية". وهكذا.

ومن المنظومات الفقهية "منظومة الخلافيات" لنجم الدين النسفي (توفي: ٥٣٧هـ) وهو أبو حفص عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل، وهي منظومة في الفقه المقارن، تناول المؤلف فيها خلاف الأئمة الفقهاء أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد وزفر والشافعي ومالك، وجاءت في (٢٦٦٩) بيتاً من الشعر، وقد شرحها أبو

البركات النسفي (توفي: ٧١٠هـ) وهو عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي في كتاب سماه "المستصفى"، ثم اختصر ذلك الشرح في كتاب سماه "المصفى"، وشرح المنظومة كذلك كثيرون آخرون، منهم محمود الأفسنجي (توفي: ٦٧١هـ) في كتاب حقائق المنظومة.

وقد لاحظ أبو الفرج ابن الجوزي (توفي: ٥٩٧هـ) التحول في همم العلماء من الاجتهاد في تأليف أصول العلم، إلى التقليد والاقتصار على المختصرات فقال: "كانت همم العلماء من القدماء عليَّةً، تدل على تصانيفهم التي هي زبدة أعمارهم، إلا أن أكثر تصانيفهم دثرت، لأنَّ همم الطالب ضعفت فصاروا يطلبون المختصرات ولا ينشطون للمطولات، ثم اقتصروا على ما يدرسون به من بعضها، فدثرت الكتب ولم تنسخ."[١]

أما شمس الدين الذهبي (توفي: ٧٤٩هـ)؛ فقد بيَّن في "السير" درجات العلماء من عهد الصحابة ومن بعدهم ومراتبهم في الاجتهاد والتقليد حتى وصل إلى عهد ابن جرير الطبري (توفي: ٣١٠هـ)، وأبي بكر الخلال (توفي: ٣١١هـ)، وأبي جعفر الطحاوي (توفي: ٣٢١هـ)، ثم قال: "ثم من بعد هذا النمط تناقص الاجتهاد، ووضعت المختصرات، وأخلد الفقهاء إلى التقليد من غير نظر في الأعلم، بل بحسب الاتفاق، والتشهي، والتعظيم، والعادة، والبلد."[٢]

وقد استفاض ابن خلدون في بيان أثر التحول من التأليف إلى الشروح والمختصرات على نوعية التعليم، فكان مما أورده في المقدمة: "ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم، يولعون بها، ويدونون منها برنامجاً مختصراً في كل علم، يشتمل على حصر مسائله وأدلتها، باختصار في

(١) ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد. **صيد الخاطر**، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م، ص٤٤٨.

(٢) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، مرجع سابق، ج١٥، ص٩٢.

الألفاظ، وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن، وصار ذلك مخلاً بالبلاغة، وعَسِراً على الفهم، وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون بالتفسير والبيان، فاختصروها تقريباً للحفظ، كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه، وابن مالك في العربية، والخونجي في المنطق، وأمثالهم، وهو فساد في التعليم، وفيه إخلال بالتحصيل، وذلك لأنَّ فيه تخليطاً على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يستعد لقبولها بعد، وهو من سوء التعليم... ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم، بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة الفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها، لأن ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة، فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت..."[1]

سابعاً: من التأديب إلى التعليم

موضوعات التعليم كثيرة، ونجد في التراث الإسلامي نصوصاً كثيرة في تصنيف العلوم، وفي حُكْمِ تعليمِ كل صنف وتعلُّمِه، والزمن المناسب لتعليمه حسب عُمُر المتعلمين، ومقدار ما يلزم من كل علم، لفئات المتعلمين، وغير ذلك.

ومن الطبيعي أن اللغة هي أوّل ما يتلقاه الصبي من والديه بالمشافهة والتقليد، وكذلك الأمر في الآداب والعادات. ويميز الغزالي (توفي: ٥٠٥هـ) بين التعليم والتأديب فيجعل التأديب مقدمة للتعليم، فيقول: "ثم يبدأ بالتأديب، ثم بالتعليم، فإن التعليم لا يكون إلا بعد التأديب، لأنَّ من ليس له أدبٌ ليس له علمٌ."[2] والمقصود بالتأديب عند الغزالي هو العملية التي يراد بها تعويد الأطفال على الآداب والأخلاق والفضائل، لأنه يحتاج إليها في جلوسه لتعلم العلوم والمعارف، وصبره على متطلبات التعليم.

---

(١) ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج٣، ص١١٩٠.

(٢) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. **منهاج المتعلم**، حققه وعلق عليه: طه ياسين، دمشق: دار طيبه ودار النهضة، ط١، ٢٠٠٧م، ص٨٠ - ٨٦ بتصرف.

ويؤكد مسكويه (توفي: ٤٢١هـ) البدء بهذا التأديب والتهذيب، حين يوجز الحديث في "تهذيب الأخلاق" عن "دستور تهذيب الأطفال" فيرىٰ ضرورة التنشئة علىٰ حُبِّ الكرامة، وتجنب أسباب المذمة فيما يختص المآكل والمشارب والملابس وطرق التعامل مع الآخرين،[١] ثم يفصل القول في أدب المطاعم، وأدب الملابس، وأدب المجالس.[٢] ويربط ابن سينا (توفي: ٤٢٧هـ) موضوعات التعليم بالنضج الجسمي واللغوي للطفل: "فإذا اشتدّت مفاصلُ الصبيِّ واستوىٰ لسانُه وتهيأ للتلقين ووعىٰ سمعُه أخذ في تعلُّم القرآن وصُوّر له حروف الهجاء، ولُقّن معالمَ الدين. وينبغي أن يروي الصبي الرجز ثم القصيدة..."[٣]

أما ابن حزم (توفي: ٤٥٦هـ)؛ فقد ميز بين نوعين من العلوم التي يلزم تعليمها للأطفال؛ الأول خاص بأبناء الأمة الإسلامية والثانية مشترك بين الأمم، فيقول: "فالعلوم تنقسم أقساماً سبعة عند كل أمة، وفي كل زمان وفي كل مكان وهي: علم شريعة كل أمة، فلا بد لكل أمة من معتقد ما...، وعلم أخبارها، وعلم لغتها، فالأمم تتميز في هذه العلوم الثلاثة، والعلوم الأربعة الباقية تتفق فيها الأمم كلها، وهي علم النجوم، وعلم العدد، والطب وهو معاناة الأجسام، وعلم الفلسفة..."[٤]

ومن المتوقع أن يكون اهتمام الفقهاء فيما يبدأ تعليمه للطفل أكثر ارتباطاً بمسائل الفقه، ثم بيان الحكم الفقهي لما ينبغي وما لا ينبغي علىٰ المعلم تعليمه. فابن سحنون (توفي: ٢٠٢هـ)، والقابسي (توفي: ٤٠٣هـ) يريان أنه: "ينبغي للمعلم أن يأمرهم بالصلاة إذا كانوا بني سبع سنين... ويعلمهم الوضوء والصلاة؛ لأن ذلك دينهم، وعدد ركوعها وسجودها، والقراءة فيها، والتكبير وكيف الجلوس،

---

(١) مسكويه، **تهذيب الأخلاق**، مرجع سابق، ص٢٩٠.

(٢) المرجع السابق، ص٢٩١-٢٩٥.

(٣) ابن سينا، **كتاب السياسة**، مرجع سابق، ص٨٣.

(٤) ابن حزم، **رسائل ابن حزم الأندلسي**، مرجع سابق، ج٤، ص٦٥ - ٧٨ بتصرف.

والإحرام، والسلام، وما يلزمهم في الصلاة،... وأن يعلمهم الحساب، وليس ذلك بلازم له إلا أن يشترط ذلك عليه، وكذلك كالشعر، والغريب، والعربية، والخط، وجميع النحو، وهو في ذلك متطوع، وينبغي له أن يعلمهم إعراب القرآن، وذلك لازم له، والشكل، والهجاء، والخط الحسن، والقراءة الحسنة، والتوقيف والترتيل، يلزم ذلك، ولابأس أن يعلمهم الشعر، وليس ذلك بواجب عليه."[١]

وعلى الرغم من وجود بعض الجدل بين العلماء حول موقع القرآن في ترتيب تعليم الأطفال، فقد درج أهل الأمصار على سُنَّة تحدَّث عنها ابن خلدون فقال: "اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار الدين أخذ به أهل الملة، ودرجوا عليه في أمصارهم جميعها لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث. وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعدُ من الملكات..."[٢]

وبعد أن أثبت أهمية البدء بتعليم القرآن، أشار إلى ما ذهب إليه القاضي أبو بكر بن العربي الذي "قدّم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس... ويا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره، يقرأ ما لا يفهم ويَنْصَب في أمرٍ غَيْرُه أهمُّ عليه."[٣]

ومهما كان نصيب الفرد من التأديب والتعليم، فإنَّه في نهاية المطاف سوف يكون في الحياة العملية مؤهلاً لمهنة أو حرفة يكتسب منها رزقه، وينفع بها مجتمعه. والحِرَف والمهن، هي من العلوم التي تكتسب بالتدريب والممارسة، وقد كانت

---

(١) حجازي، **المذهب التربوي عند ابن سحنون: رائد التأليف التربوي الإسلامي**، مرجع سابق، ص١٢٠. انظر أيضاً:

- القابسي، **الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين**، مرجع سابق، ص٨٧ - ٨٩.

(٢) ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، مرجع سابق، ج٣، ص١١١٥-١١١٨.

(٣) المرجع السابق، ج٣، ص١١١٨.

مراقبة أعمال المهن في الحضارة الإسلامية جزءاً من مهمة المحتسب، الذي يستعين باختيار شيخ لكل مهنة يعرف أسرارها وكيفية ممارستها على الوجه الصحيح، والكشف عما قد يوجد من غش أو تقصير في العمل. وقد تحدث ابن خلدون أن الحرف والمهن هي من جملة الصنائع، وقد حصل فيها كثير من التطور والازدهار، فهي تعتمد على المعلم أولاً، وتزداد الخبرة فيها وإتقانها بالتدريب وطول المكث مع المعلم، ويكفي في هذا المعنى ما كتبه ابن خلدون تحت عنوان: "فصل في أن الصنائع لا بد لها من معلم."[1]

ثامناً: المعلم من المكانة السامية إلى صفة الحمق والغباء

قبل الحديث عن مكانة المعلم في التراث التربوي الإسلامي، من المناسب أن نشير إلى هذه المكانة في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية. فقد رفعت هذه النصوص من شأن العلم والتعليم والمعلم، فرسالة الأنبياء هي رسالة تعليم، ولذلك شاع أنَّ التعليم رسالة قبل أن يكون مهنة، وكان بعث النبيّ إلى المؤمنين منة عظيمة: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤] والرسول الله ﷺ يقول: "إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثني معلماً وميسراً."[2]

وكان من تكريم النبيّ ﷺ أن كلف بعض أصحابه ليقوموا بمهام التعليم، فمصعب ابن عمير كان المعلم للمؤمنين في المدينة قبل الهجرة. وكانت الوفود تأتي إلى النبي من أنحاء الجزيرة فيرسل معهم من أصحابه من يعلمهم. وكذلك كان خلفاء النبي في العهد الراشدي ولا سيما عمر وعثمان وعلي معلمين يذكّرون الناس ولا سيما صغار الصحابة وكبار التابعين ما سمعوه من أقوال النبي ﷺ وما رأوه من أفعاله.

---

(١) المرجع السابق، ج٢، ٨٥٦-٨٩٨.

(٢) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: الطلاق، باب: بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية، عن جابر بن عبد الله، ص٥٩٢، حديث رقم: (١٤٧٨).

واتخذ بعض الصحابة مجالس في المسجد يعلّمون الناس، ولا سيما القرآن الكريم والحديث النبوي، وتوسعت حركة الكتاتيب التي تعلم الصبيان الكتابة والقراءة والقرآن، وبدأت في عهد عمر بن الخطاب عملية تنظيم هذه الكتاتيب وتحديد مواعيد التدريس والاستراحة.

ومع بداية عهد الأمويين تمايزت ثلاثة أنواع من المعلمين؛ النوع الأول هم المؤدبون، وهم نمط من المعلمين كانوا يعلمون أبناء الخاصة من الخلفاء والأمراء، ويتلقون أجوراً مرتفعة، وبعضهم كان يسكن داخل القصور، ليعتنوا بالأبناء عناية عامة، تشمل تهذيب الآداب والأخلاق، إضافة إلى علوم الدين واللغة والتاريخ. والنوع الثاني هم معلمو الكتاتيب؛ إذ جرى التوسع فتح الكتاتيب، وأمر عمر بن عبد العزيز بتخصيص أجور مجزية للمعلمين، أما النوع الثالث في العلماء؛ فهم الذين اتخذوا لهم مجالس علم في المساجد، وأحياناً في بيوتهم، وكان هؤلاء في الغالب لا يأخذون أجراً، وإنما يتطوعون بذلك طلباً للثواب.

واستمر التوسع في هذه الأنواع الثلاثة من المعلمين، في العصر العباسي، وأصبحت وصايا الخلفاء لمؤدبي أبنائهم نوعاً من الأدب المأثور، كما بدأت المدارس الفقهية بالظهور والتمايز بطبقة عالية المستوى من العلماء -المعلمين من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي، وقدر المجتمع هذه المكانة العالية لمثل هؤلاء العلماء- المعلمين، ولتلاميذهم الذين واصلوا حركة الاجتهاد العلمي حتى عدّوا من أولياء الله، فقد روي أن الإمام الزهري كان يقول: "هوانٌ بالعلم أن يَحْمِلَه العالِمُ إلى بيت المتعلم، فإن أصلح حاله مع الله واتصف بالتقوى، فإنه سيكون ولياً من أولياء الله سبحانه."[1] وهذا أبو حنيفة يقول: "إن لم يكن أولياء الله في الدنيا والآخرة الفقهاء والعلماء، فليس لله فيها وليّ." وهذا الشافعي يقول: "إن لم يكن الفقهاء أولياء الله في الآخرة فما لله وليّ."[2]

---

(١) الخطيب البغدادي، **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، مرجع سابق، ج١، ص٣٦٩-٣٧٠.

(٢) الخطيب البغدادي، **الفقيه والمتفقه**، مرجع سابق، ج١، ص١٥٠.

أما معلمو الصبيان في الكتاتيب؛ فيبدو أن ازدياد الحاجة إليهم، مع انتشار هذه الكتاتيب، أسهم في دخول الميدان من ليس أهلاً له، فاختلت صورة المعلم حتى أصبح مضرب المثل في الحمق والغباء.

ويبدو أنّ التغير في مكانة المعلم قد بدأ في وقت مبكر، إذ يروي الآجري (توفي: ٣٦٠هـ) عن عطاء الخراساني (توفي: ١٣٥هـ) ما يشير إلى أن هذا التغير كان موجوداً في زمان عطاء الخراساني وهو من التابعين، حيث يقول عطاء الخراساني: "كان العلماء قبلنا استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم، فكانوا لا يلتفتون إلى دنياهم، فكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة في علمهم، فأصبح أهل العلم منا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم.. قال الآجري: فإذا كان يخاف على العلماء في ذلك الزمان أن تفتنهم الدنيا، فماظنك به في زماننا هذا؟!"

وقدخصص ابن الجوزي (توفي: ٥٩٧هـ) في كتابه "أخبار الحمقى والمغفلين" باباً بعنوان: "في ذكر المغفلين من المعلمين"، روى فيه الكثير من الروايات التي تشير إلى حمق المعلمين، وسوء تعليمهم، وتطاول الصبيان عليهم، وفسَّر ذلك بأنه نتيجة طبيعية لمعاشرتهم الصبيان، ويقول في ذلك:

"معاشرة الصبيان سبب للغفلة: وهذا شيء قلَّ أن يخطئ، ونراه مطَّرداً، ولا نظنُّ السبب في ذلك إلا معاشرة الصبيان. وقد بلغني أن بعض المؤدبين للمأمون أساء أدبه على المأمون، وكان صغيراً، فقال المأمون: ما ظنُّك بمن يجلو عقولنا بأدبه، ويصدأ عقلُه بجهلنا، ... حتى نستغرق محمود خصاله، ويستغرق مذموم خصالنا، فإذا برعنا في الاستفادة، برع هو في البلادة، وإذا تحلينا بأوفر الآداب، تعطل من جميع الأسباب، فنحن الدهر ننزع منه آدابه المكتسبة فنستفيدها دونه، ونثبت فيه أخلاقنا الغريزية فينفرد بها دوننا، فهو طول عمره يكسبنا عقلاً، ويكتسب منا جهلاً."[1]

(١) ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد. **أخبار الحمقى والمغفلين**، شرحه: عبد الأمير مهنا، بيروت: دار الفكر اللبناني، ١٩٩٠م، ص١٤٩.

وقد اتسعت ظاهرة غير المؤهلين إلى الحد الذي أصبح المعلم موضوعاً للتندر والسخرية والوصف بالحمق. وعلى كل حال فإن المعلمين كانوا على طبقات، كما يقول الجاحظ (توفي: ٢٥٥هـ): "والمعلمون عندي على ضربين؛ منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسِهم المرشحين للخلافة...

أما معلمو الصبيان، الذين أصحبوا موضوعاً للشكوى منهم وهجائهم؛ فإنَّ الجاحظ يعترف بأنَّ منهم مقصِّرين، ولكنه يستنكر ما يقال عنهم، بل ويقدر ظروفهم ويشفق عليهم من صعوبة مهمتهم، فيقول: "وهؤلاء هم الذين هجوْتَهم وشكوْتَهم وحاججْتَهم وفحشت عليهم، وألزمت الأكابر ذنب الأصاغر، وحكمت على المجتهدين بتفريط المقصّرين، ورثيت لآباء الصّبيان من إبطاء المعلّمين عن تحذيقهم، ولم ترث للمعلّمين من إبطاء الصّبيان عمّا يراد بهم، وبعدهم عن صرف القلوب لما يحفظونه ويدرسونه، والمعلّمون أشقى بالصّبيان من رعاة الضّان وروّاض المهارة. ولو نظرت من جهة النظر علمت أنّ النعمة فيهم عظيمة سابغة، والشكر عليه لازم واجب."(١)

وقد شهد عصر التابعين وتابعيهم نمطاً آخر من المعلمين، اتخذوا من الزهد في متاع الدنيا، والاهتمام بتصفية القلب منهجاً، وانقطعوا إلى العبادة، واكتفوا بمن يجالسهم في مجالس للذكر والتبتل. وتحول هذا الاتجاه فيما بعد إلى مدرسة التصوف. نذكر من أقطابها في القرن الثاني: إبراهيم بن أدهم (توفي: ١٦٢هـ)، وعبد الواحد بن زيد (توفي: ١٧٧هـ)، والفضيل بن عياض (توفي: ١٨٧هـ)، ومن القرن الثالث: بشر الحافي (توفي: ٢٢٧هـ)، والمحاسبي (توفي: ٢٤٣هـ)، والجنيد (توفي: ٢٩٧هـ). وكان يجتمع حول كل واحد من هؤلاء من يتبعه على طريقته، فيكونون تلاميذ (مريدين) يتعلمون منه، وهو بينهم الشيخ المعلم الذي يأخذهم بالتأديب والتعليم والتربية.

---

(١) الجاحظ، **رسائل الجاحظ**، مرجع سابق،مج٢، ج٣، ص٢٧-٢٨.

والمريدون حول الشيخ هم من الكبار البالغين، يأخذهم الشيخ بمنهج الذكر والأوراد والمعايشة والمخالطة ليترقَّوْا بين المقامات: "فإنه لا يقدر على تهذيبهم إلا بمخالطتهم، وحاله معهم حال المعلم وحكمه..."[1] ويتعامل الشيخ مع كل مريد بما يراه مناسباً له من طرق التربية: "كذلك الشيخ الذي يطيب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ... كما أن الطبيب لو عالج كل المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم، فكذلك الشيخ ... ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وسنِّه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة، ..."[2]

ودخلت بعضَ الطرق الصوفية صورٌ من الغلو والانحراف في العقيدة، والسلوك، لا سيما في تقدير شيخ الصوفية لنفسه، وتعظيم المريدين له، والثقة المطلقة به، والطاعة العمياء له.

عرف عن بعض شيوخ الصوفية شطحات في ألفاظهم وعباراتهم وسلوكهم، فيما يختص بعلاقتهم بالله سبحانه، واطلاعهم على علمه، يعدّونها حالات من الغيبوبة والشهود والتجلِّي، التي لا يعرفها ولايفهمها إلا من ذاقها.

ومن الأمور التي بدا فيها التطور ما يخص علاقة المعلم بمجتمعه، وعلاقة المعلمين بعضهم ببعض، فقد تضمن التراث ما يشير إلى ظهور نموذجين من هذه العلاقات، إيجابية راقية، وعلاقات تنافس وتحاسد.

وقد وثق التراث الإسلامي ظاهرة تدهور صورة المعلم ومكانته في المجتمع، والأسباب الموصلة لذلك، وبعضها يختص بالمعلمين وما عرف عنهم من قلة علم وكسل وضعف مروءة؛ وربما كان بعضها يختص بالتقصير في توفير المستوى الكريم لحياة المعلم، فتضاءلت منزلته في نفسه، ومن ثم لم تعد نظرة المجتمع إليه أمراً مهماً،

---

(١) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٣٩.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص٦١.

وبعضها يختص بالقصور في أداء المحتسب لمهمته في الرقابة على التعليم والمعلمين، وضعف كفاءة المؤسسات التي تنظم شؤون التعليم.

لا شك في أنَّ هناك عوامل ترفع من مقدار هذه المكانة، وأخرى تهبطبها، كالخضوع للحكام، وقبول هباتهم. وكانت مواقف المعلمين مع السلاطين، تتفاوت بين اللين والاتباع وبين التشدد والابتعاد، والأمثلة على كلا النوعين موجودة وبكثرة، وقد حذر العلماء كثيراً من صحبة السلطان، وفي هذا المعنى يقول ابن حزم: "وإن ابتلي بصحبة سلطان فقد ابتلي بعظيم البلايا، وعرض للخطر الشنيع في ذهاب دينه، وذهاب نفسه وشغل باله وترادف همومه..."[1] ويروي ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، عن الأعمش: "وقالوا: شر الأمراء أبعدهم من العلماء، وشر العلماء أقربهم من الأمراء."[2]

أشرنا إلى أن واحداً من الأسباب التي أدت إلى تدهور مكانة المعلم في نفسه وفي المجتمع من تلك المكانة الرسالية السامية أن مهنة التعليم دخلها من ليس أهلاً لها. وقد اجتهد بعض الحكام في التاريخ الإسلامي إلى إعفاء المعلمين من الجهاد في الثغور لأنَّهم يُعَدُّون ممن ينفرون لجهاد العلم: تطبيقاً لقوله تعالى شأنه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢]، فكان بعض أهل الهمم الساقطة ممن يؤثرون التخلف عن الجهاد يلجأون إلى اتخاذ التعليم مهنة تؤهلهم للإعفاء من الجهاد. وقد جاء في كتاب "صورة الأرض" لابن حوقل توثيق لهذه الظاهرة في إحدى مدن صقيلية أيام حكم المسلمين لها: "والغالب على البلد المعلمون، والمكاتب به في كل مكان، وهم فيه على طبقات مختلفة، ومنازل شتى متباينة من الصُراع والخُباط على ما يفوق جنون معلمي كل بلد وحمق كل ناحية،... وبالبلد

(١) ابن حزم، **رسائل ابن حزم الأندلسي**، مرجع سابق، مرجع سابق، ج٤، ص٧٦.

(٢) ابن عبد البر، **جامع بيان العلم وفضله**، مرجع سابق، ج١، ص٦٤٤.

منهم ما يقارب ثلاثمائة معلم، ... وإنما توافرت عدتهم مع قلة منفعتهم لفرارهم من الغزو ورغبتهم عن الجهاد. ... وكان قد سبق الرسم بإعفاء المعلمين قديماً بينهم من النوائب، وحملت على المغارم، ففزع إلى التعليم بُلُهُهم وحسَّنهُ لديهم جهلُهُم مع قلة الانتفاع به والجدوى منه، فإن فيهم الكثير تمر به السنة فلا يصيب من جميع صبيانه، وهو كثير عشرة دنانير، فأي منزلة أقبح وصورة أخس وأوتح من رجل باع ما أوجب الله تعالى عليه من الجهاد وشرفه، والغَزْوِ وعِزِّه، بأخس منزلة وأوضح حرفة وأسقط صنيعة."[1]

مثل هذه الظاهرة هي التي روجت لمقولة: "أن المعلم أحمق محكوم عليه بالنقص والجهل والخفّة وقلة العقل."[2]

خاتمة:

ارتبطت حياة المسلمين بأعمال التعليم من تبليغ، وتلقين، وقراءة، وكتابة، استجابةً للأمر بالقراءة في أول آية من القرآن الكريم في سورة العلق: ﴿اَقۡرَأۡ﴾ [العلق: ١]. وكان هذا التعليم يتم في أيَّ مكان وفي كلِّ حال. وعندما وصل النبي ﷺ إلى المدينة، أصبح المسجد مؤسسة، يتعلم المسلمون فيه ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم. وبقي القرآن الكريم، ثم السنة والسيرة النبوية، المادة الأساسية التي يدور حولها التعليم. لكن هذا التعليم في مادته وأساليبه ومؤسساته، لم يبق على الصورة التي بدأ عليها في المدينة المنورة، بل رافقه كثير من التغير والتطور.

وقد عرضنا في هذا الفصل أمثلة مختارة من المجالات التي أمكن فيها رصد بعض ملامح التغيُّر والتطوُّر. وكان يمكن أن نواصل الحديث في هذا الفصل عن أمثلة كثيرة أخرى، ولا سيما في مجال موضوعات التعليم ومناهجه، وطرائق التعليم

(١) ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي الموصلي. **كتاب صورة الأرض**، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٩٢م، ص١٢٠-١٢٣.

(٢) المرجع السابق ص١٢٠-١٢٢.

وأساليبه وأدواته، والأوقاف التعليمية، ونظم التعليم وأنماط إدارته، والإجازات العلمية والتعليمية، وغير ذلك. ثم إنَّ ما عرضناه عن كلِّ مَثَلٍ من هذه الأمثلة كان رؤية إجمالية موجزة، تسمح للتوسع فيها، لنجد حولها في التراث التربوي الكثير من مظاهر التنوع، وليصبح بالإمكان امتداد هذه الرؤية الإجمالية إلى بحث مطول يغطي مئات الصفحات. لكن الهدف من هذا الفصل هو التأكيد على ما قلناه في مقدمة الفصل من أن خبرات التعليم في حياة البشر كانت دائماً في تطوُّر وتغيُّر، وأن التطور والتغير يشمل المجالات جميعها ذات الصلة بالتعليم، وأن التعليم يتصل بجميع مناشط الإنسان وحركته في الحياة، منذ ولادته حتى وفاته، إضافة إلى أنَّ وظيفة التعليم تستهدف كذلك نقل تراث الأمة من جيل إلى جيل، وتمكين الأمة من التجديد والإبداع، بحيث تحافظ على مكانتها وريادتها في ساحة العالم.

وكان من نتائج اقتصار مادة الفصل على ما ذكرنا من أمثلة واختصار أن بقيت كثير من المساحات الفارغة في الخريطة التاريخية والجغرافية لتطور التعليم،كما يعكسه التراث التربوي الإسلامي، فهذا الفصل لم يتناول مثلاً التعليم في بلاد المغرب والأندلس بما يستحق من الاهتمام، والعهد العثماني من التاريخ الإسلامي لم يأخذ ما يستحق من الاهتمام كذلك.

وقد اقتصر حديثنا في هذا الفصل على التعليم وتطوراته كما تكشف عنها المدونات التراثية الإسلامية، وقد لاحظنا أن المرجعية الإسلامية في القرآن الكريم والسنة النبوية كانت حاضرة بدرجات متفاوتة في الزمان والمكان. وكان درجة حضور هذه المرجعية تتصل باجتهاد أهل كل زمان ومكان، وما قادهم إليه اجتهادهم وفكرهم. ولذلك لا غرابة أن نجد مادة التراث التربوي الإسلامي في عصر من العصور هي الفكر التربوي الإسلامي الذي ساد ذلك العصر. وتبقى المرجعية الإسلامية الأصلية في القرآن الكريم والسنة النبوية هي الحاكمة على ذلك الفكر. مما يسوغ لنا القول إن التراث التربوي الإسلامي ليس هو المرجعية لنا اليوم

في عصرنا هذا في بناء الفكر التربوي الإسلامي المعاصر، وإن ما في ذلك التراث من قيمة هو فهم طريقة الاجتهاد التي مارسها كل جيل في الاستمداد من تلك المرجعية الأصلية.

وتبقى حركة التطور والتغير في ممارسات التعليم مستمرة إلى اليوم والغد، مما يحتم علينا اليوم عدم الوقوف عند ما نجده في التراث، الذي عبر عن خبرات الأجيال السابقة، وإنما استصحاب هذه الخبرات، على هدى من نور تلك المرجعية الأصلية، والاستمرار في حركة الاجتهاد والتجديد في ممارساتنا التربوية والتعليمية، لنقدم لأنفسنا وللعالم نموذجاً من الفهم والممارسة يتناسب مع إيماننا بأن الوحي الإلهي والهدي النبوي صالحين لكل زمان ومكان، وبهما نستحق أن نكون خير أمة أخرجت.

والحمد لله رب العالمين.